مجموعة قصص الأنبياء

بإشراف
محمد أحمد برانق



١٨

ابنة عمران

دار المعارف بمصر

مجموعة قصص الأنبياء

٥

بإشراف
محمد أحمد برانق

ابنة عمران

الطبعة الحادية عشرة

دار المعارف

١

هُنَاكَ فِي جِبَالِ حَبْرُونَ ، قُرْبَ مَدِينَةِ أُورْشَلِيمَ فِي فِلَسْطِينَ ، كَانَ يَسْكُنُ عِمْرَانُ بْنُ مَاثَانَ فِي مَنْزِلٍ صَغِيرٍ مِنَ ٱلْمَنَازِلِ ٱلْمُتَنَاثِرَةِ عَلَى سُفُوحِ هَذِهِ ٱلْجِبَالِ ؛ وَعِمْرَانُ هَذَا مِنْ أَشْرَافِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَحْبَارِهِمْ ، وَمِنْ سُلَالَةِ نَبِيِّهِمْ دَاوُدَ ، وَقَدْ نَزَلُوا لَهُ عَنْ شَرَفِ سِدَانَةِ مَعْبَدِهِمْ وَخِدْمَتِهِ .

كَانَتْ زَوْجَتُهُ حِنَّةُ ٱمْرَأَةً صَالِحَةً ، فَعَاشَا مَعاً فِي هَذَا ٱلْبَيْتِ وَحِيدَيْنِ ، لِأَنَّ ٱللَّهَ حَرَمَهُمَا نِعْمَةَ ٱلْخَلَفِ ، وَوَهَبَ لَهُمَا نِعْمَةَ الصَّبْرِ وَٱلْإِيمَانِ ، فَظَلَّا كَذَلِكَ حَتَّى كَبِرَا وَشَاخَا .

كَانَتْ حِنَّةُ ذَاتَ يَوْمٍ جَالِسَةً تَحْتَ شَجَرَةٍ ظَلِيلَةٍ ، فَرَأَتْ عُصْفُوراً يَزُقُّ فِرَاخَهُ ، فَتَحَرَّكَتْ فِي قَلْبِهَا عَاطِفَةُ ٱلْأُمُومَةِ ، وَاشْتَهَتْ أَنْ يَكُونَ لَهَا وَلَدٌ ، فَصَارَتْ تُفَكِّرُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي ٱلْخَلَفِ وَتَحْلُمُ بِهِ ؛ فَإِذَا خَلَتْ بِأُخْتِهَا ٱلْيِصَابَاتِ ، زَوْجَةِ زَكَرِيَّا بْنِ بَرْخِيَا ، حَدَّثَتْهَا بِذَلِكَ ، وَكَانَتْ أُخْتُهَا ٱلْيِصَابَاتُ

عَاقِرًا مِثْلَهَا ، وَعَاوَدَهَا مِثْلُ هَذَا ٱلْحَنِينِ مِنْ قَدِيمِ ٱلزَّمَانِ ، ثُمَّ وَطَّنَتْ نَفْسَهَا عَلَى ٱلرِّضَا ، وَالصَّبْرِ عَلَى قَضَاءِ ٱللهِ .

رَأَتْ ٱلْيصَابَاتُ أُخْتَهَا مَا زَالَتْ تَعِيشُ فِي هَذَا ٱلْأَمَلِ ، فَأَشْفَقَتْ عَلَيْهَا ، وَظَلَّتْ تُوَاسِيهَا ، وَتَبُثُّ فِي نَفْسِهَا الصَّبْرَ وَالرِّضَا بِقَضَاءِ ٱللهِ ، وَتُحَاوِلُ أَنْ تُبَيِّنَ لَهَا ٱسْتِحَالَةَ تَحْقِيقِ أَمَلِهَا هَذَا ، وَلَكِنَّ أُخْتَهَا حَنَّةَ زَوْجَةَ عِمْرَانَ كَانَتْ تَشْعُرُ بِقُرْبِ تَحْقِيقِ هَذَا ٱلْأَمَلِ ، وَكَأَنَّ هَاتِفًا يَبْعَثُ فِي نَفْسِهَا نُورَ ٱلرَّجَاءِ ، فَيُعَاوِدُهَا ٱلْحَنِينُ ، وَتَقْوَى ٱلرَّغْبَةُ ، فَإِذَا هِيَ تَتَّجِهُ إِلَى ٱللهِ بِالدُّعَاءِ وَالِابْتِهَالِ ، لِكَيْ يَهَبَ لَهَا غُلَامًا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُهَا ، وَيَكُونُ خَلِيفَةَ أَبِيهِ فِي سِدَانَةِ بَيْتِ عِبَادَتِهِمْ .

اسْتَجَابَ اللهُ دُعَاءَهَا ، فَحَمَلَتْ ، وَشَعَرَتْ بِالْجَنِينِ يَتَحَرَّكُ فِي بَطْنِهَا ، فَطَابَتْ نَفْسُهَا ، وَعَظُمَتْ ثِقَتُهَا بِاللهِ ، فَذَهَبَتْ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، وَوَقَفَتْ فِي الْمِحْرَابِ وَقَلْبُهَا يَفِيضُ بِالشُّكْرِ وَالْإِيمَانِ ، وَقَالَتْ : رَبِّ ؛ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ، فَتَقَبَّلْ مِنِّي ، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .

لَمَّا انْتَهَتْ امْرَأَةُ عِمْرَانَ مِنْ كَلَامِهَا ، غَمَرَهَا فَيْضٌ مِنَ النُّورِ ، فَظَلَّتْ وَاقِفَةً فِي مَكَانِهَا ، وَقَدِ انْتَابَهَا ذُهُولٌ ، فَطَالَ وُقُوفُهَا ، وَشَكَّ النَّاسُ فِي أَمْرِهَا ، فَكَانَ الزَّائِرُونَ وَالزَّائِرَاتُ يَدُورُونَ حَوْلَهَا ، وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهَا ، وَهِيَ لَا تُحِسُّ بِوُجُودِهِمْ ، وَلَا تَشْعُرُ بِمَا يَجْرِي حَوْلَهَا ، ثُمَّ أَفَاقَتْ ، بَعْدَ وَقْتٍ فَعَادَتْ إِلَى بَيْتِهَا ، وَأَخْبَرَتْ زَوْجَهَا عِمْرَانَ بِحَمْلِهَا وَنَذْرِهَا ، فَسُرَّ بِذَلِكَ سُرُورًا عَظِيمًا ، لِأَنَّ اللهَ وَصَلَ ذُرِّيَّتَهُ مِنْ بَعْدِهِ فِي خِدْمَةِ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ، وَوَقَفَ رَافِعًا يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَدْعُو اللهَ وَيَشْكُرُ لَهُ .

مَاتَ عِمْرَانُ قَبْلَ أَنْ تَلِدَ زَوْجَتُهُ ، فَحَزِنَتْ عَلَيْهِ حُزْنَ الصَّابِرَاتِ ، وَعَاشَتْ وَحِيدَةً لَا أَنِيسَ لَهَا إِلَّا جَنِينُهَا الَّذِي يَتَحَرَّكُ فِي بَطْنِهَا بَيْنَ حِينٍ وَحِينٍ .

جَاءَهَا الْمَخَاضُ فَوَضَعَتْ ، وَإِذَا الْوَلِيدَةُ أُنْثَى ، فَخَابَ الْأَمَلُ ؛ وَكَانَتِ الصَّدْمَةُ عَنِيفَةً ، لِأَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يَعْتَادُوا أَنْ يَهَبُوا لِخِدْمَةِ الْبَيْتِ إِلَّا ذُكُورًا ، وَكَانَ رِجَالُ الدِّينِ وَسَدَنَةُ الْبَيْتِ لَا يَقْبَلُونَ الْبِنْتَ إِذَا وَهَبَهَا أَهْلُهَا ،

حَزِنَتْ حَنَّةُ لِأَنَّ ذُرِّيَّةَ عِمْرَانَ لَمْ يَعُدْ لَهَا مَكَانٌ فِي سِدَانَةِ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ ، وَقَدْ كَانَتْ قَوِيَّةَ الْأَمَلِ فِي أَنْ يَكُونَ الْمَوْلُودُ ذَكَرًا ، فَظَلَّتْ حَائِرَةً تُفَكِّرُ فِي نَذْرِهَا الَّذِي لَمْ تَسْتَطِعِ الْوَفَاءَ بِهِ .

بَيْنَمَا كَانَتْ حَائِرَةً يَائِسَةً رَفَعَتْ رَأْسَهَا إِلَى السَّمَاءِ وَقَالَتْ:

رَبِّ ؛ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ، وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى ، وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ، وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ .

قَالَتْ امْرَأَةُ عِمْرَانَ ذَلِكَ ، فَتَجَلَّى لَهَا النُّورُ الَّذِي رَأَتْهُ يَوْمَ نَذَرَتْهَا فِي الْمِحْرَابِ ، وَأَفْهَمَهَا اللهُ أَنَّهُ قَدْ تَقَبَّلَ مَوْلُودَتَهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ، وَكَأَنَّ هَاتِفًا يَهْتِفُ بِهَا أَنْ تَفِيَ بِنَذْرِهَا .

كَانَتْ فَرْحَتُهَا عَظِيمَةً حِينَمَا لَفَّتْهَا وَذَهَبَتْ بِهَا إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، فَوَجَدَتْ تَرْحِيبًا مِنَ الْأَحْبَارِ ، فَقَالَتْ لَهُمْ :

دُونَكُمْ هَذِهِ الْمَنْذُورَةَ – مَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ ، لَقَدْ صَارَتْ أُخْتَكُمْ فِي خِدْمَةِ الْبَيْتِ وَسِدَانَتِهِ .

لَمْ يَعْتَرِضْ عَلَيْهَا مِنْهُمْ مُعْتَرِضٌ ، فَتَرَكَتْهَا حَنَّةُ فِي رِعَايَتِهِمْ، وَعَادَتْ إِلَى بَيْتِهَا رَاضِيَةً مُطْمَئِنَّةً ، بَعْدَ أَنْ وَفَتْ بِنَذْرِهَا ، وَأَدَّتْ الْأَمَانَةَ إِلَى أَهْلِهَا .

أَمَّا أَحْبَارُ الْبَيْتِ فَقَدِ اخْتَلَفُوا فِي أَمْرِهَا ، وَحَاوَلَ كُلٌّ مِنْهُمْ أَنْ يَحْظَى بِشَرَفِ تَرْبِيَتِهَا وَكَفَالَتِهَا .

تَقَدَّمَ زَكَرِيَّا بْنُ بَرْخِيَا وَقَالَ لَهُمْ : إِنِّي أَوْلَى بِهَا ، فَزَوْجَتِي خَالَتُهَا ، وَهِيَ أَحَقُّ مِنْكُمْ جَمِيعاً بِكَفَالَتِهَا .

قَالَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ : لَقَدْ أَصْبَحَتْ هَذِهِ الْمَنْذُورَةُ مِلْكاً لِلْبَيْتِ ، فَلْنَقْتَرِعْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهَا ، وَالْخَيْرُ فِيمَا يَخْتَارُهُ اللهُ .

اتَّفَقَ الْأَحْبَارُ عَلَى ذَلِكَ ، وَذَهَبُوا إِلَى نَهْرِ الْأُرْدُنِّ ، وَكَانَتِ الْقُرْعَةُ أَنْ يُلْقُوا فِي النَّهْرِ أَقْلَامَهُمْ الَّتِي يَكْتُبُونَ بِهَا التَّوْرَاةَ ، وَالْفَائِزُ هُوَ صَاحِبُ الْقَلَمِ الَّذِي يَطْفُو عَلَى سَطْحِ الْمَاءِ .

فَعَلُوا ذَلِكَ ، فَرَسَبَتِ الْأَقْلَامُ جَمِيعاً إِلَّا قَلَمَ زَكَرِيَّا ، وَكَرَّرُوا ذَلِكَ الْعَمَلَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، وَفِي كُلِّ مَرَّةٍ كَانَ قَلَمُ زَكَرِيَّا يَطْفُو ، وَتَرْسُبُ أَقْلَامُهُمْ .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

۞ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ
ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ
ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ
ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ
يَكْفُلُ مَرْيَمَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ اذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾

صدق الله العظيم

[سورة آل عمران - الآيات من ٤٢ - ٤٤]

٢

أَخَذَ زَكَرِيَّا مَرْيَمَ إِلَى دَارِهِ ، وَاسْتَأْجَرَ لَهَا الْمَرَاضِعَ ، وَعُنِيَتْ بِهَا زَوْجَتُهُ أَلِيصابَاتُ ، فَعَطَفَتْ عَلَيْهَا عَطْفَ الْأُمِّ ، وبَذَلَتْ فِي رِعَايَتِهَا كُلَّ مَجْهُودٍ حَتَّى نَمَتْ ، وَصارَتْ طِفْلَةً تَسْعَى عَلَى قَدَمَيْهَا ، وَحَانَ وَقْتُ ذَهَابِهَا إِلَى الْبَيْتِ الَّذِى نُذِرَتْ لَهُ ، فانْتُزِعَتْ مِنْ مَنْزِلِ خَالَتِهَا ، فَكَانَ حُزْنُهَا عَلَيْهَا شَدِيدًا ، وَلَكِنَّهَا صَبَرَتْ ، والصَّبْرُ عَزَاءُ الْمُؤْمِنَاتِ .

عَاشَتْ مَرْيَمُ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، فَكَانَتْ تَجْلِسُ كُلَّ يَوْمٍ فِي الْمِحْرَابِ تَحْفَظُ التَّوْرَاةَ ، وتَتَعَلَّمُ فُرُوضَ الدِّينِ ، ولَقَدْ أَحَسَّ الْأَحْبَارُ وَعُلَمَاءُ الدِّينِ نَحْوَهَا هَيْبَةً وَوَقَارًا مُنْذُ الصِّغَرِ ، لِمَا بَدَا عَلَيْهَا مِنَ الْوَرَعِ وَالصَّلَاحِ .

ظَلَّتْ مَرْيَمُ هَكَذا تَمُرُّ عَلَيْهَا الْأَيَّامُ وَتَمْضِى الشُّهُورُ وَالسُّنُونَ ، وزَكَرِيَّا ابْنُ بَرْخِيَا يَرْعَاهَا ويَزُورُهَا مِنْ حِينٍ لِحِينٍ ، ويُحْضِرُ لَهَا مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ كُسْوَةٍ وطَعامٍ ، وَهِيَ

مُنْصَرِفَةٌ عَنْ مَتاعِ ٱلدُّنْيا وَلَهْوِهَا مُقْبِلَةٌ عَلى التَّوْرَاةِ تُطَالِعُها ، وتَتَعَلَّمُ ما بِهاَ ، وتَعْمَلُ بِما فِيها .

تَخَطَّتْ مَرْيَمُ سِنَّ ٱلْعاشِرَةِ ، وتَحَدَّثَ ٱلْأَحْبارُ بِصَلَاحِها وتَقْوَاهَا ، أَمَّا زَكَرِيَّا فَقَدْ كانَ يَرَى عِنْدَهَا ما يُحَيِّرُهُ ويُبَلْبِلُ أَفْكارَهُ :

كُلَّما دَخَلَ عَلَيْها زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً ؟

قالَ : يا مَرْيَمُ ؛ أَنَّى لَكِ هَذَا ؟ !

قالَتْ : هُوَ مِنْ عِنْدِ ٱللهِ ، إنَّ ٱللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ .

اخْتارَ زَكَرِيَّا فِي أَمْرِهَا ، وَمَالَ إلى تَصْدِيقِها ، فَما عَهِدَ عَلَيْها كَذِباً ، وَإِنَّهُ لَيَجِدُ عِنْدَهَا فَوَاكِهَ الصَّيْفِ فِي الشِّتاءِ ، وَفَوَاكِهَ الشِّتاءِ فِي الصَّيْفِ ، وَما كانَ لِأَحَدٍ مِنَ النّاسِ أَنْ يُمِدَّهَا بِهَذِهِ الْفَوَاكِهِ فِي غَيْرِ أَوَانِها ، وبَعْدَ كَثْرَةِ تَفْكِيرٍ وتَقْدِيرٍ أَلْهَمَهُ اللهُ صِدْقَها وقَدَاسَتَها ، وزَادَهُ ذَلِكَ حُبّاً واحْتِرَاماً لَها .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿...فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا
زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًاۖ قَالَ
يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ
بِغَيْرِ حِسَابٍ ٣٧﴾

صدق الله العظيم

[سورة آل عمران - الآية ٣٧]

خَرَجَ زَكَرِيّا مِنْ حُجْرَةِ مَرْيَمَ بَعْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ، وَقَدْ رَأَى عِنْدَهَا مارَأَى مِنْ رِزْقِ ٱللهِ الْوَهّاب، فَتَمَنَّى أَنْ يَهَبَ لَهُ ٱللهُ وَلَدًا فِي صَلَاحِها وتَقْوَاهَا كَمَا وَهَبَهَا لِأَبَوَيْها بَعْدَ يَأْسٍ وَقنُوطٍ، فَذَهَبَ إِلَى ٱلْمِحْرَابِ وَقَدْ تَمَلَّكَتْهُ رَغْبَةٌ قَوِيَّةٌ فِي الِالْتِجاءِ إِلَى ٱللهِ بِالدُّعَاءِ، قالَ:

رَبِّ؛ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً، إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَاءِ.

فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ، وَسَمِعَهَا تَقُولُ لَهُ:

إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى، مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ، وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ.

قَالَ: رَبِّ؛ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ، وَقدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ، وَامْرَأَتِي عاقِرٌ؟!!

قَالَتِ ٱلْمَلَائِكَةُ: كَذٰلِكَ اللهُ يَفْعَلُ ما يَشَاءُ.

قَالَ: رَبِّ؛ اجْعَلْ لِي آيةً أَعْرِفُ بِهَا وَقْتَ وِلَادَتِهِ.

قَالَتِ الْمَلائِكَةُ : إنَّ الْعَلَامَةَ أَنْ يَحْبِسَ اللهُ لِسَانَكَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ، فَلاَ تَسْتَطِيعُ التَّفَاهُمَ مَعَ النَّاسِ إلَّا بِالْإشَارَةِ .

رَجَعَ زَكَرِيَّا إلى زَوْجَتِهِ ، وأَخْبَرَهَا بِدُعَائِهِ ، وبِمَا كَانَ مِنْ إجَابَةِ الْمَلَائِكَةِ لَهُ ، فَاسْتَبْشَرَتْ خَيْرًا ، وَقَالَتْ :

لَعَلَّ اللهَ الَّذِي رَزَقَ أُخْتِي بِمَرْيَمَ يَرْزُقُنِي بِمِثْلِهَا .

لَمْ يَمْضِ شَهْرَانِ حَتى تَحَقَّقَتْ النُّبُوءَةُ ، وَحَمَلَتِ أَلْيصَابَاتُ .

٣

كَانَ الْيَهُودُ يَعْتَبِرُونَ دمَ الْحَيْضِ نَجِسًا ، وَيُحَرِّمُونَ عَلَى النِّسَاءِ وَالْفَتَيَاتِ الْبَالِغَاتِ الْإِقَامَةَ بِالْمَسْجِدِ ، فَلَمَّا اكْتَمَلَتْ أَنُوثَةُ مَرْيَمَ الْعَذْرَاءِ اجْتَمَعَ الْأَحْبَارُ لِلتَّشَاوُرِ بِشَأْنِهَا ، وَقَرَّرُوا أَنَّ مُدَّةَ النَّذْرِ قَدِ انْتَهَى أَجَلُهَا ، وَأَنَّهُ قَدْ حَانَ تَسْرِيحُهَا ، لِتَخْرُجَ إِلَى أَدَاءِ رِسَالَتِهَا فِي الْحَيَاةِ ، وَكَانَ ابْنُ عَمِّهَا يُوسُفُ النَّجَّارُ مِنْ أُولَئِكَ الْأَحْبَارِ الَّذِينَ حَضَرُوا هَـذَا الِاجْتِمَاعَ ، فَلَمَّا انْتَهَى الْمَجْلِسُ ذَهَبَ إِلَى زَكَرِيَّا لِيُحَادِثَهُ فِي أَمْرِ مَرْيَمَ بَعْدَ هَـذَا الْقَرَارِ .

قَالَ يُوسُفُ : أَرَى أَنْ تَضُمَّهَا إِلَى بَيْتِكَ فِي رِعَايَةِ خَالَتِهَا ، فَهِيَ رَبِيبَتُهَا وَأَقْرَبُ النَّاسِ إِلَيْهَا .

قَالَ زَكَرِيَّا : إِنَّ ذَلِكَ أَحَبُّ أُمْنِيَّةٍ لِي وَلِزَوْجَتِي ، وَلَـكِنَّنِي بَلَغْتُ الشَّيْخُوخَةَ ، فَشَابَ رَأْسِي ، وَوَهَنَ عَظْمِي ، فَمَنْ يَرْعَاهَا بَعْدِي ؟

قَالَ يُوسُفُ : يَرْعَاهَا خَالِقُهَا ، وَرُبَّمَا هَيَّأَ لَهَا زَوْجًا صَالِحًا يَضُمُّهَا إِلَى بَيْتِهِ ، فَهِيَ مِنْ سُلَالَةٍ طَاهِرَةٍ مُبَارَكَةٍ

قَالَ زَكَرِيَّا : لَا أَرَى أَصْلَحَ لَهَا مِنْكَ ، فَأَنْتَ ابْنُ عَمِّهَا ؛ وَأَحَقُّ النَّاسِ بِهَا ، وَلَقَدْ نَشَأْتُمَا مَعًا عَلَى الصَّلَاحِ وَالتَّقْوَى ، فَاتَّفَقَتْ مَشَارِبُكُمَا فِي عِبَادَةِ اللهِ وَسِدَانَةِ الْبَيْتِ .

قَالَ يُوسُفُ : إِنَّهُ لَشَرَفٌ عَظِيمٌ لِي ، وَلَكِنَّهَا مُتَّجِهَةٌ إِلَى اللهِ ، وَلَيْسَ فِي صَدْرِهَا مَكَانٌ لِغَيْرِ الْعِبَادَةِ .

قَالَ زَكَرِيَّا : سَأُقْنِعُهَا أَنْ تَذْهَبَ مَعَكَ إِلَى النَّاصِرَةِ ، لِتَعِيشَ فِي كَنَفِ عَمَّتِكَ وَعِنَايَتِهَا .

قَالَ يُوسُفُ : إِنْ وَافَقَتْ عَلَى ذَلِكَ فَسَوْفَ أَهَبُ نَفْسِي لِخِدْمَتِهَا وَلَا أَطْمَعُ إِلَّا فِي رِضَاءِ اللهِ عَنِّي بِإِكْرَامِهَا .

قَبِلَتْ مَرْيَمُ السَّفَرَ مَعَ ابْنِ عَمِّهَا يُوسُفَ النَّجَّارِ إِلَى الْجَلِيلِ فِي الشَّمَالِ ، لِتُقِيمَ مَعَ عَمَّتِهَا فِي النَّاصِرَةِ ، وَلِتَرُوضَ نَفْسَهَا عَلَى الزَّوَاجِ الَّذِي تَنْفِرُ مِنْهُ ، وَاشْتَرَطَتْ لِذَلِكَ أَنْ تَبْقَى عِنْدَ عَمَّتِهَا عَذْرَاءَ عَامًا كَامِلًا ، فَأُجِيبَتْ إِلَى رَغْبَتِهَا ، وَسَافَرَتْ مَعَ ابْنِ عَمِّهَا .

وَالآنَ تَبْدَأُ مَشَاهِدُ تِلْكَ الْقِصَّةِ فِى قَرْيَةٍ تَكْتَنِفُهَا جِبَالُ الْجَلِيلِ ، حَيْثُ يَعْمَلُ يُوسُفُ النَّجَّارُ فِى حَانُوتِهِ ، وَعَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْهُ تَسْكُنُ مَرْيَمُ الْعَذْرَاءُ تَقْضِى يَوْمَهَا فِى غَزْلِ الصُّوفِ ، وَمُسَاعَدَةِ عَمَّتِهَا فِى إِعْدَادِ الطَّعَامِ ، وَجَلْبِ الْمَاءِ ، فَتَخْرُجُ مَعَ فَتَيَاتِ الْقَرْيَةِ إِلَى يَنْبُوعٍ عَذْبٍ لِيَمْلَأْنَ جِرَارَهُنَّ كُلَّ يَوْمٍ فِى الصَّبَاحِ .

وَنَحْنُ نَتَخَيَّلُهَا فِى حَيَاتِهَا الْيَوْمِيَّةِ فَتَاةً وَادِعَةً ، قَدِ اكْتَسَتْ ثَوْبَ الطُّهْرِ وَالْجَلَالِ ، وَنَتَصَوَّرُهَا أَيْضًا بِوَجْهٍ رَائِقٍ جَمِيلٍ ، يَتَّفِقُ مَعَ جَمَالِ نَفْسِهَا ، وَصَفَاءِ قَلْبِهَا .

تَأَخَّرَتْ مَرْيَمُ يَوْمًا عَنْ زَمِيلَاتِهَا ، فَلَمَّا ذَهَبَتْ إِلَى الْيَنْبُوعِ لِتَمْلَأَ الْجَرَّةَ وَجَدَتْ نَفْسَهَا وَحِيدَةً ، وَأَحَسَّتْ وَحْشَةً وَرَهْبَةً وَاضْطَرَبَ جِسْمُهَا فَجْأَةً ، فَشَعَرَتْ بِالْخَوْفِ ، وَأَقْبَلَتْ عَلَى الْمَاءِ مُسْرِعَةً تُرَدِّدُ أَدْعِيَاتِ الصَّلَاةِ ، وَإِذَا شَابٌّ قَوِيٌّ ، وَسِيمُ الطَّلْعَةِ ، جَمِيلُ الْهَيْئَةِ ، يَنْظُرُ إِلَيْهَا ، كَأَنَّمَا خَرَجَ مِنَ الْأَرْضِ .

ذُعِرَتِ الْفَتَاةُ ، وَتَوَقَّعَتْ شَرًّا يَنْزِلُ بِهَا فَقَالَتْ :

إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا .

ذَلِكَ الشَّابُّ كَانَ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَلَمَّا رَأَى خَوْفَهَا وَانْزِعَاجَهَا قَالَ :

إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا .

احْتَارَتْ مَرْيَمُ فِي أَمْرِهِ ، وَخَافَتْ أَنْ يَكُونَ بَشَرًا أَرَادَ بِهَا سُوءًا ، وَأَرَادَتِ الْهَرَبَ ، فَهَبَطَ عَلَيْهَا إِلْهَامٌ مِنَ اللهِ ، وَإِذَا هِيَ وَاقِفَةٌ أَمَامَهُ فِي ثَبَاتٍ وَاطْمِئْنَانٍ ، ثُمَّ رَأَتْ صَفًّا مِنَ الْمَلَائِكَةِ عَنْ يَمِينِهَا ، وَصَفًّا عَنْ شِمَالِهَا ، فَهَدَأَتْ نَفْسُهَا وَذَهَبَ خَوْفُهَا .

قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ :

يَا مَرْيَمُ ؛ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ ، اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ ، وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ .

قَالَتْ : رَبِّ ؛ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ؟

قَالَ جِبْرِيلُ : كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ؛ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ

وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ، وَرَسُولًا إِلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ .

تَلَقَّتْ مَرْيَمُ هَذَا النَّبَأَ الْعَظِيمَ بِخَوْفٍ وَفَرَحٍ . إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يُبَشِّرُونَهَا بِوَلَدٍ يَكُونُ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ ، وَرَسُولًا إِلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ ، يَا لَهُ مِنْ شَرَفٍ عَظِيمٍ !! .

رَفَعَتْ رَأْسَهَا أَمَامَ جِبْرِيلَ وَقَالَتْ :

هَأَنَذَا أَمَةُ اللهِ . لِيَكُنْ مَا يُرِيدُ اللهُ .

تَقَدَّمَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَنَفَخَ فِى جَيْبِهَا ، ثُمَّ اخْتَفَى عَنْهَا مَعَ الْمَلَائِكَةِ ، بَعْدَ أَنْ وَهَبَهَا وَدِيعَةَ الْقُدُّوسِ الْأَعْلَى .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِذْ قَالَتِ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ
عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ (٤٥)
وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٤٦) قَالَتْ رَبِّ
أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ
إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٤٧) وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ
وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ (٤٨) ﴾

صدق الله العظيم

[سورة آل عمران - الآيات من ٤٥ - ٤٨]

٤

وَبَعْدَ قَلِيلٍ مِنَ الزَّمَنِ تَتَخَيَّلُ الْعَذْرَاءُ قَدْ أُحِيطَتْ بِسِرٍّ هَائِلٍ ، لَمْ تَعْهَدْهُ امْرَأَةٌ سِوَاهَا مِنْ قَبْلُ ، فَالْجَنِينُ يَتَحَرَّكُ فِي بَطْنِهَا ، وَأَمْرُهَا صَائِرٌ إِلَى الْفَضِيحَةِ ، وَهِيَ الْعَذْرَاءُ الصَّالِحَةُ الَّتِي عَاشَتْ عُمْرَهَا طَاهِرَةً نَقِيَّةً .

لَمْ تُطِقْ مَرْيَمُ الْبَقَاءَ بِحَالَتِهَا هذِهِ فِي النَّاصِرَةِ ، فَأَسْرَعَتْ بِالْعَوْدَةِ إِلَى جِبَالِ حَبْرُونَ ، لِتَكْشِفَ سِرَّهَا إِلَى امْرَأَةٍ مِثْلِهَا ، تَثِقُ فِيهَا ، وَتَطْمَئِنُّ إِلَيْهَا ؛ وَتَلَاقَتْ مَرْيَمُ مَعَ خَالَتِهَا أَلِيصَابَاتَ ، فَأَلْقَتْ إِلَيْهَا بِسِرِّهَا الرَّهِيبِ .

كَانَتِ أَلِيصَابَاتُ زَوْجَةُ زَكَرِيَّا قَدْ حَمَلَتْ هِيَ أَيْضًا ، بَعْدَ أَنِ اسْتَجَابَ اللهُ لِدُعَاءِ زَوْجِهَا ، فَرَوَتْ كُلٌّ مِنْهُمَا قِصَّتَهَا ، وَتَحَدَّثَتَا بِغَرَابَةِ حَمْلِهِمَا ، وَمَكَثَتَا مَعًا ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ فِي هَذَا الْبَيْتِ الْهَادِئِ عَلَى سَفْحِ الْجَبَلِ .

وَفِي لَيْلَةٍ كَانَتَا نَائِمَتَيْنِ عَلَى سَرِيرٍ وَاحِدٍ ، فَاسْتَيْقَظَتَا عَلَى

نِدَاءٍ سَمَاوِيّ أَلْهَمَهُمَا أَنَّ الطِّفْلَيْنِ سَيَشْتَرِكَانِ مَعًا فِي إِتْمَامِ الْقَصْدِ الإِلٰهِيِّ، وَنَزَلَ هَذَا الْخَبَرُ عَلَى قَلْبَيْهِمَا بَرْدًا وَسَلَامًا.

عَادَتِ الْعَذْرَاءُ الْمُبَارَكَةُ إِلَى النَّاصِرَةِ، وَهِيَ الْفَتَاةُ الْبَاسِمَةُ الْمُشْرِقَةُ، فَقَدْ أَصْبَحَتْ تَعِيشُ فِي عَالَمٍ جَدِيدٍ أَكْثَرَ اتِّصَالًا بِاللهِ، تُفَكِّرُ طَوِيلًا بِفَرَحٍ مَمْزُوجٍ بِالْخَوْفِ.

انْتَفَخَتْ بَطْنُهَا، وَبَدَأَتْ تَفْطِنُ إِلَى الرِّيبَةِ الَّتِي تُخَامِرُ قُلُوبَ الْمُحِيطِينَ بِهَا، فَكَانَتْ تُفَكِّرُ فِي ذَلِكَ طَوِيلًا، وَأَخِيرًا اسْتَقَرَّ عَزْمُهَا عَلَى أَنْ تَكْشِفَ سِرَّهَا إِلَى ابْنِ عَمِّهَا يُوسُفَ النَّجَّارِ، وَكَانَ أَشَدَّ النَّاسِ بِرًّا بِهَا وَحِرْصًا عَلَيْهَا، فَأَرْسَلَتْ لَهُ، وَأَلْقَتْ إِلَيْهِ بِسِرِّهَا الَّذِي كَانَ حِمْلًا ثَقِيلًا عَلَيْهَا.

وَقَعَ هَذَا الْخَبَرُ عَلَى يُوسُفَ وُقُوعَ الصَّاعِقَةِ، فَشَكَّ فِي أَمْرِهَا، وَهُوَ أَعْلَمُ النَّاسِ بِعِفَّتِهَا وَطَهَارَتِهَا، وَعَادَ إِلَى مَنْزِلِهِ، وَأَوَى إِلَى فِرَاشِهِ شَارِدَ الْفِكْرِ مُضْطَرِبَ الْفُؤَادِ، فَطَارَ النَّوْمُ مِنْ عَيْنَيْهِ، وَعَصَرَ الْحُزْنُ قَلْبَهُ.

وَفِي هُدُوءِ اللَّيْلِ هَبَطَ الْوَحْيُ الإِلٰهِيُّ عَلَى ذَلِكَ الرَّجُلِ

الْمُعَذَّبِ وَالْقَلْبِ الْجَرِيحِ ، وَأَنْبَأَهُ الْحَقِيقَةَ الْعُظْمَى ، فَقَامَ مِنْ نَوْمِهِ ، وَقَدْ آمَنَ بِحَقِيقَةِ مَرْيَمَ الْعَذْرَاءِ ، وَأَسْرَعَ إِلَيْهَا فِي مَنْزِلِ عَمَّتِهَا لِيَعْتَذِرَ لَهَا عَنْ رِيبَتِهِ فِيهَا ، ثُمَّ عَرَضَ عَلَيْهَا أَنْ يَضُمَّهَا فِي بَيْتِهِ لِيَسْتُرَ أَمْرَهَا ، وَيَحْظَى بِشَرَفِ رِعَايَتِهَا كَمَا يَرْعَى الزَّوْجُ زَوْجَتَهُ .

أَذْعَنَتْ مَرْيَمُ لِإِلْحَاحِ عَمَّتِهَا فَقَبِلَتْ هَذَا الْعَرْضَ وَذَهَبَتْ إِلَى بَيْتِ يُوسُفَ ، فَأَتَمَّتْ فِيهِ مُدَّةَ الْحَمْلِ .

لَمَّا صَارَتْ فِي الشَّهْرِ التَّاسِعِ ، وَرَأَى يُوسُفُ سُوءَ حَالَتِهَا ، أَشْفَقَ عَلَيْهَا ، وَبَذَلَ الْمُسْتَحِيلَ لِيُخْفِيَ أَمْرَهَا ، وَيَمْنَعَ سُوءَ الْقَالَةِ عَنْهَا ، فَقَرَّرَ السَّفَرَ بِهَا لِتَضَعَ مَوْلُودَهَا بَعِيدَةً عَنِ النَّاصِرَةِ وَأَهْلِهَا .

٥

صَدَرَ أَمْرُ الْقَيْصَرِ أُغُسْطُسَ إِلَى جَمِيعِ الْبِلاَدِ الَّتِى انْتَظَمَهَا مُلْكُهُ الْوَاسِعُ بِحَصْرِ عَدَدِ السُّكَّانِ ، وَكِتَابَةِ أَسْمَائِهِمْ فِى سِجِلاَّتِ كُلِّ دَوْلَةٍ ، وَهَدَّدَ كُلَّ مَنْ يَتَخَلَّفُ عَنْ تَدْوِينِ اسْمِهِ ، وَأَسْمَاءِ عَائِلَتِهِ بِالْعِقَابِ الشَّدِيدِ .

سَافَرَ النَّاسُ مِنَ الشَّمَالِ وَالْجَنُوبِ إِلَى أُورْشَلِيمَ ، لِتَدْوِينِ أَسْمَائِهِمْ ، فَكُنْتَ تَرَى الطُّرُقَ مُزْدَحِمَةً بِالْمُسَافِرِينَ . مَالَتِ الشَّمْسُ إِلَى الْغَرْبِ ، وَظَهَرَتْ جِبَالُ مُوآبَ بِلَوْنِهَا الْقُرْمُزِىِّ ، تُشْرِفُ عَلَى الطَّرِيقِ الْمُمْتَدِّ فِى بَطْنِ الْوَادِى ، حَيْثُ تَقَعُ الْعَيْنُ عَلَى رَكْبٍ مِنَ الْمُسَافِرِينَ ، جَاءُوا مِنْ بِلاَدِ الْجَلِيلِ فِى الشَّمَالِ ، وَقَدْ بَدَا عَلَيْهِمْ أَثَرُ التَّعَبِ ، وَأَضْنَاهُمُ السَّفَرُ الطَّوِيلُ .

كَانَ مِنْ بَيْنِ هَؤُلاَءِ الْمُسَافِرِينَ ، فَتَاةٌ قَرَوِيَّةٌ عَلَى دَابَّةٍ أَمْسَكَ بِمِقْوَدِهَا رَجُلٌ كَانَ يُبْدِى اهْتِمَامًا عَظِيمًا بِهَا .

تِلْكَ الْفَتَاةُ هِىَ مَرْيَمُ الْعَذْرَاءُ ، وَصَاحِبُهَا هُوَ ابْنُ عَمِّهَا .

يُوسُفُ النَّجَّارُ ، أَقْبَلاَ مَعاً إلَى أُورْشَلِيمَ ، لِيُقَيِّدَا اسْمَيْهِمَا فِي سِجِلاَّتِ الْحَاكِمِ ، وَلَعَلَّهُمَا أَيْضًا أَرَادَا الاِخْتِفَاءَ عَنْ قَوْمِهِمَا خَشْيَةَ الْفَضِيحَةِ ، وَقْتَ وِلاَدَةِ مَرْيَمَ .

اقْتَرَبَ الرَّكْبُ مِنْ بَيْتِ لَحْمٍ ، وَشَعَرَتْ مَرْيَمُ بِمُقَدِّمَاتِ الْوَضْعِ ، فَمَالَ يُوسُفُ بِهَا إلَى بَيْتِ لَحْمٍ ، وَأَنْزَلَهَا بِالْقُرْبِ مِنْ كَهْفٍ كَبِيرٍ ، قَدِ اسْتَعْمَلَهُ الرُّعَاةُ مِنْ قَدِيمِ الزَّمَانِ مَرْبطاً لِلْمَاشِيَةِ وَالْأَغْنَامِ ، فَجَلَسَتْ مَرْيَمُ بِجِوَارِ جِذْعِ نَخْلَةٍ ، وَذَهَبَ ابْنُ عَمِّهَا إلَى أُورْشَلِيمَ ، لِيَسْتَأْجِرَ لَهُمَا مَكَاناً يَنْزِلاَنِ فِيهِ .

بَحَثَ يُوسُفُ فِي الْمَدِينَةِ فَلَمْ يَجِدْ مَكَاناً خَالِياً ، وَمَا كَانَ هُنَاكَ مَكَانٌ يَصْلُحُ لِرَاحَةِ حُبْلَى فِي شَهْرِهَا الْأَخِيرِ ، لِكَثْرَةِ الْوَافِدِينَ عَلَى الْمَدِينَةِ فِي هَذَا الْوَقْتِ .

٦

كَانَتْ مَرْيَمُ الْعَذْرَاءُ وَحِيدَةً هُنَاكَ بِجِوَارِ نَخْلَةٍ مُعَمَّرَةٍ ، وَأَمَامَهَا جَدْوَلٌ صَغِيرٌ مِنَ الْمَاءِ الْعَذْبِ يَسْرِى مَاؤُهُ ، فَقَاسَتْ مَرَارَةَ الْوِحْدَةِ وَقْتَ الْوِلَادَةِ ، وَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ، فَوَضَعَتِ ابْنَهَا الْبِكْرَ ، وَقَامَتْ إِلَى الْجَدْوَلِ فَغَسَلَتْهُ وَقَمَّطَتْهُ ، ثُمَّ اتَّجَهَتْ بِهِ إِلَى الْكَهْفِ ، وَفِى هَذَا الْمَكَانِ الْهَادِئِ نَامَ الْمَسِيحُ نَوْمَتَهُ الْأُولَى ، وَدَخَلَ إِلَى الْعَالَمِ بِهَذِهِ الصُّورَةِ الْمُتَوَاضِعَةِ ، كَمَا يَدْخُلُ أَىُّ مَوْلُودٍ عَادِىٍّ مِن عَامَّةِ النَّاسِ .

اسْتَقْبَلَتْهُ السَّمَاءُ بِمَظَاهِرِ الْبِشْرِ وَالتَّرْحِيبِ ، فَشَعَّ نُورُ اللهِ عَلَى مَهْدِ هَذَا الْوَلِيدِ الْمُبَارَكِ ، وَكَانَتْ أُمُّهُ بَعْدَ هَذَا الْمَجْهُودِ الشَّاقِّ قَدْ اسْتَسْلَمَتْ لِضَعْفٍ أَلَمَّ بِهَا ، فَرَأَتْ مَظَاهِرَ الْحَفَاوَةِ وَالتَّكْرِيمِ لِهَذَا الْمَوْلُودِ الْعَظِيمِ ، رَأَتْ ذَلِكَ الْكَوْكَبَ الَّذِى يَتَلَأْلَأُ فِى السَّمَاءِ فَوْقَ مَهْدِ الطِّفْلِ ، وَسَمِعَتْ تَرْتِيلَ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ جَاءُوا يَحُفُّونَ بِالْمَوْلُودِ ، يُسَبِّحُونَ وَيُهَلِّلُونَ وَيَهْتِفُونَ

بِالتَّحِيَّةِ لِمَوْلِدِهِ ، وَشَاهَدَتْ هَذَا النُّورَ الَّذِى انْبَثَقَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ، يُعْلِنُ لِمَلَايِينِ الْبَشَرِ فَجْرَ الْخَلَاصِ مِنْ رِبْقَةِ الظُّلْمِ وَالِاسْتِعْبَادِ ، وَظَلَامِ الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ .

أَفَاقَتْ مَرْيَمُ مِنْ ضَعْفِهَا ، وَعَادَ إِلَيْهَا نَشَاطُهَا ، فَإِذَا طُفْلُهَا يَنْظُرُ إِلَيْهَا نَظْرَةَ الْعَطْفِ وَالتَّسَاؤُلِ ، وَإِذَا قَلْبُهَا مُفْعَمٌ بِالذِّكْرَيَاتِ الْأَلِيمَةِ ، وَالصُّوَرِ الْبَشِعَةِ ، وَإِذَا هِيَ نَهْبٌ لِلتَّفْكِيرِ فِى سَاعَةِ لِقَاءِ أَهْلِهَا وَذَوِيهَا .

كَيْفَ تَرُدُّ عَلَى التُّهَمِ الَّتِى سَتَنْهَالُ عَلَيْهَا ؟ ! ظَلَّتْ تُفَكِّرُ فِى ذَلِكَ كَثِيرًا ، فَانْتَابَتْهَا مَوْجَةٌ مِنَ الضِّيقِ ، وَنَكَسَتْ رَأْسَهَا تُحَاوِلُ إِبْعَادَ هَذِهِ الْوَسَاوِسِ عَنْهَا . قَالَتْ : يَا لَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَذَا ، وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا ! ! يَا إِلَهِى ؛ أَنْتَ عَلِيمٌ بِحَالِى ، فَأَلْهِمْنِى الرَّشَادَ ، وَخَلِّصْنِى مِمَّا أُقَاسِيهِ .

كَانَتْ مَرْيَمُ حَقًّا فِى حَيْرَةٍ شَدِيدَةٍ ، لَا تَسْتَطِيعُ الْبَقَاءَ بِمَوْلُودِهَا فِى هَذَا الْمَكَانِ بِدُونِ طَعَامٍ ، وَلَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَعُودَ بِهِ إِلَى ذَوِيهَا فِى النَّاصِرَةِ ، وَلَا إِلَى أَقْرِبَائِهَا فِى بَيْتِ لَحْمٍ ،

فَيَرْمُوهَا بِالسُّوءِ، وَيَقْذِفُوهَا بِالتُّهَمِ أَشْكَالًا وَأَلْوَانًا .

أَظْلَمَتِ الدُّنْيَا فِي عَيْنِهَا ، وَسَاءَتِ الْحَيَاةُ أَمَامَهَا ؛ وَبَيْنَمَا هِيَ فِي غَمْرَةٍ مِنْ ذَلِكَ سَمِعَتْ صَوْتًا يُنَادِيهَا :

يَا مَرْيَمُ ، لَا تَحْزَنِي ! ! قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ مَاءً سَرِيًّا ، وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ، فَكُلِي مِنَ الرُّطَبِ ، وَاشْرَبِي مِنَ الْمَاءِ ، وَتَوَكَّلِي بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ ، فَهُوَ نِعْمَ الْمَوْلَى ، وَنِعْمَ النَّصِيرُ .

سَمِعَتْ مَرْيَمُ هَذَا النِّدَاءَ السَّمَاوِيَّ يَتَرَدَّدُ عَلَى أُذُنِهَا ، فَكَانَ بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى قَلْبِهَا ، أَعَادَ إِلَيْهَا الْأَمْنَ وَالثِّقَةَ ، وَأَذْهَبَ عَنْهَا الْخَوْفَ وَالِاضْطِرَابَ .

قَامَتْ مَرْيَمُ الْعَذْرَاءُ إِلَى الْجَدْوَلِ فَشَرِبَتْ ، وَهَزَّتْ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ وَجَمَعَتْ مَا وَقَعَ مِنْهَا ، ثُمَّ أَقْبَلَتْ عَلَى الطِّفْلِ وَأَشْرَقَ وَجْهُهَا بِمُحَيَّاهُ ، فَانْزَاحَ عَنْهَا هَذَا الْكَابُوسُ الثَّقِيلُ ، وَآمَنَتْ بِقَضَاءِ اللهِ ، فَاسْتَسْلَمَتْ لَهُ .

أَقْبَلَ ابْنُ عَمِّهَا يُوسُفُ النَّجَّارُ مِنْ أُورْشَلِيمَ ، وَكَانَ قَدْ

سَمِعَ حَدِيثَ النَّاسِ فِيهَا حَوْلَ ظُهُورِ النَّجْمِ الْأَكْبَرِ ، وَتَسَاؤُلَهُمْ عَنْ آيَاتِ ظُهُورِ الْمَسِيحِ الْمُنْتَظَرِ الَّذِى بَشَّرَتْ بِهِ التَّوْرَاةُ .

جَاءَ يُوسُفُ إِلَى مَرْيَمَ فِى لَهْفَةٍ وَحَسْرَةٍ ، فَوَجَدَهَا فِى أَتَمِّ صِحَّةٍ ، تَسْعَى بِخِفَّةٍ بَيْنَ مَذَاوِدِ الْمَاشِيَةِ فِى الْكَهْفِ وَيَنْبُوعِ الْمَاءِ ، فَتَغْسِلُ الْخِرَقَ ، وَتَنْشُرُهَا عَلَى أَشِعَّةِ الشَّمْسِ ، وَقَدْ حَمَاهَا اللهُ مِنْ كُلِّ سُوءٍ ؛ فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهَا يَسْتَفْسِرُ عَنْ حَالِهَا ، أَشَارَتْ إِلَى الْمِذْوَدِ ، فَأَسْرَعَ يُوسُفُ إِلَيْهِ ، وَوَقَفَ بُرْهَةً يَتَأَمَّلُ فِى ذَلِكَ الْوَجْهِ الْمُشْرِقِ الْجَمِيلِ ، وَنَحْنُ نَتَصَوَّرُ مَا يَجُولُ فِى رَأْسِ هَذَا الرَّجُلِ الْمُؤْمِنِ مِنَ الْأَفْكَارِ ، بَعْدَ مَا رَأَى مِنْ آيَاتِ اللهِ ، وَمَا سَمِعَ مِنْ حَدِيثِ الْقَوْمِ ، فَنَعْرِفُ السِّرَّ فِيمَا فَعَلَهُ بَعْدَ ذَلِكَ ، حِينَمَا وَهَبَ كُلَّ وَقْتِهِ ، وَبَذَلَ كُلَّ جُهْدِهِ لِرِعَايَةِ هَذَا الْوَلِيدِ الْخَارِقِ لِنَامُوسِ الْحَيَاةِ ، وَأُمِّهِ السَّيِّدَةِ الْعَذْرَاءِ .

وَنَتَصَوَّرُهُ أَيْضًا يَعُودُ إِلَى مَرْيَمَ ، وَقَدْ نَكَّسَ رَأْسَهُ هَيْبَةً

وإجْلالاً لِيَسْأَلَهَا عَمَلاً يُؤَدِّيهِ ، أَوْ خِدْمَةً يُقَدِّمُهَا .

حَقًّا ! ؟ إنَّ يُوسُفَ النَّجَّارَ كَانَ رَجُلاً صَالِحًا تَقِيًّا نَبِيلاً ، كَشَفَ اللهُ عَنْ بَصِيرَتِهِ ، وَأَلْهَمَهُ الْحَقِيقَةَ وَالصَّوَابَ .

وَنَحْنُ نَتَصَوَّرُ مَرْيَمَ تَقْضِى مُدَّةَ النِّفَاسِ فِي هَذَا الْمَكَانِ الْخَلاَئِيِّ الْهَادِئِ ، فَنَجِدُهَا هَانِئَةً بِهِ ، وَقَدْ رَاضَتْ نَفْسَهَا عَلَى الْإِقَامَةِ فِيهِ ، وَكَانَ يُوسُفُ النَّجَّارُ يَذْرَعُ الْأَرْضَ كُلَّ يَوْمٍ بَيْنَ الْكَهْفِ وَأُورْشَلِيمَ ، حَيْثُ يَقْضِى حَوَائِجَهَا ، وَيَشْتَرِى لَهَا الْخُبْزَ وَالطَّعَامَ ، فَإِذَا عَادَ مِنَ الْمَدِينَةِ وَجَدَ ثَمَرًا كَثِيرًا ، جَادَتْ بِهِ هَذِهِ النَّخْلَةُ الَّتِي شَبَّ عُودُهَا ، وَاخْضَرَّتْ أَوْرَاقُهَا ، بَعْدَ أَنْ أَصَابَهَا الْكِبَرُ ، وَنَخِرَ فِيهَا السُّوسُ .

انْتَهَتْ مُدَّةُ النِّفَاسِ ، وَحَانَ مَوْعِدُ الرَّحِيلِ إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَعَاوَدَ مَرْيَمَ الْقَلَقُ ، وَانْتَابَتْهَا الْوَسَاوِسُ مِنْ جَدِيدٍ .

كَانَ يُوسُفُ يَحْزِمُ الْأَمْتِعَةَ اسْتِعْدَادًا لِلرَّحِيل ، وَمَرْيَمُ غَارِقَةٌ فِى هُمُومِهَا وَدُعَائِهَا تَطْلُبُ الْعَوْنَ مِنَ اللهِ ، فَسَمِعَتْ هَاتِفًا يَهْتِفُ بِهَا :

يَا مَرْيَمُ ؛ صُومِي الْيَوْمَ عَنِ الْكَلامِ ، فَلاَ تُكَلِّمِي أَحَدًا مِنَ النَّاسِ ، وَاللهُ يَتَوَلاَّكِ بِرِعَايَتِهِ .

كَانَ هَذَا الْهَاتِفُ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلامُ ، فَصَدَعَتْ لِلأَمْرِ ، وَنَذَرَتِ الصَّوْمَ ، قَالَتْ :

إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا ، فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا .

لَمَّا فَرَغَ يُوسُفُ مِنْ حَزْمِ الأَمْتِعَةِ ، حَمَلَهَا عَلَى دَابَّتِهِ ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَى مَرْيَمَ ، وَدَعَاهَا لِلرُّكُوبِ ، فَرَكِبَتْ دُونَ أَنْ تُحَرِّكَ شَفَتَيْهَا بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ .

اتَّجَهَتْ مَرْيَمُ بِالطِّفْلِ إِلَى جِبَالِ حَبْرُونَ ، وَجَاءَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ، قَالُوا :

يَا مَرْيَمُ ؛ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ، وَأَمْرًا مُنْكَرًا ! ؟

سَكَتَتْ مَرْيَمُ وَلَمْ تَقُلْ شَيْئًا لِلدِّفَاعِ عَنْ نَفْسِهَا ، فَأَيْقَنُوا أَنَّهَا ارْتَكَبَتْ خَطِيئَةً ، وَقَالُوا :

يَا أُخْتَ هَرُونَ ؛ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ ، وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا .

تَـكَلَّمِي وَدَافِعِي عَن نَفْسِكِ . كَيْفَ جِئْتِ بِهَذَا الْغُلَامِ ؟!
كَانَتْ مَرْيَمُ صَائِمَةً لَا تَسْتَطِيعُ الْـكَلَامَ ، فَلَمَّا أَلَحُّوا عَلَيْهَا وَكَثُرَ سُؤَالُهُمْ لَهَا : أَشَارَتْ إِلَى الطِّفْلِ لِيُـكَلِّمُوهُ .

قَالُوا : كَيْفَ نُـكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ؟ !

تَـكَلَّمَ الْمَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَهُوَ مَلْفُوفٌ فِي أَقْمِطَتِهِ فَقَالَ :

إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْـكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ، وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتُ ، وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ، وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْـنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ، وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ ، وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا .

ذَلِكَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ .

مجموعة قصص الأنبياء

مجموعة جديدة ، فى أسلوب سهل ممتع ، وإخراج أنيق جميل ، للصغار والكبار ، تصف حياة الأنبياء ، وجليل أعمالهم ، وتسرد ما صادفهم من حوادث مع أقوامهم ، خالية من الشوائب والإسرائيليات حتى تظل العقيدة سليمة نقية تمكن الإنسان من التقرب إلى الله تعالى وحده ، والاعتصام بدينه وتعاليمه ، والتحلى بالفضائل الحسنة ، والتمسك بالأخلاق الكريمة .

برنامج المجموعة

١ – آدم
٢ – نوح
٣ – هود
٤ – صالح
٥ – إبراهيم الخليل
٦ – إسماعيل الذبيح
٧ – يوسف الصديق
٨ – يوسف العفيف
٩ – يوسف على خزائن مصر
١٠ – موسى الرضيع
١١ – موسى والسحرة
١٢ – موسى وبنو إسرائيل
١٣ – داوود
١٤ – سليمان وملك الجزائر
١٥ – سليمان و بلقيس
١٦ – يونس
١٧ – أيوب
١٨ – ابنة عمران
١٩ – عيسى المسيح
٢٠ – الحواريون

٥ قروش ج.ع.م.	٥٠ فلساً فى العراق والأردن	٧٠ فرنكاً فى المغرب
٤٠ ق . ل	٥٠ فلساً فى الكويت	٠,٦ ريالا سعودياً
٥٠ ق . س	٦٠ مليماً فى تونس	١ شلنا } فى البلاد
٥٠ مليماً فى ليبيا والسودان	٧٠ فرنكاً فى الجزائر	٠,١٤ دولاراً } الأخرى